في مسألة هدر اللغة:
مأزق الكتابة أم كتابات المأزق؟!
الكتابة الإبداعية العربية إلى أين؟!

لقد مرت عقود في هذا القرن، ربما أمكن تمديدها حتى اجتياح الصهاينة لبيروت العام ١٩٨٢، كان الإبداع العربي فيها شعراً ونثراً يضج بالحيوية. أما اليوم فإن الخمود العام يكاد يطغى على حركة الإبداع تعبيراً وتلقياً، وينفلت ليطاول التنظير ومحاولات تجديد الأدلجة والنقد... إلى آخره، وذلك كله مؤشر على مأزق حاد تمر به الحياة العربية الراهنة، والكتابة العربية المترافقة معها المعبرة عنها.

ولأن الكتابة في نهاية كل تحليل هي (قضية لغة)، فإن انحدار مستوى الكتابة إنما هو هدر للغة، وفي هدر اللغة هدر (للآخر) متلقياً كان أم طرفاً في عملية وجود اجتماعي معاين... بشكل ما. ولكن هذه قضية شائكة تحتاج درساً مستقلاً، برغم وقوعها في صلب ما نحن بصدد معالجته، وعدم إمكانية التهرب من الإشارة إليها أو أخذها بالحسبان هنا وهناك.

وحيثما يوجد المأزق تتورم ذات المبدع والكاتب تورماً استبدالياً خطراً إذ هي تحيل تصوير الحقائق الموضوعية إلى (مفاتن نرجسيتها) إحالة لا يمكن حصر طرقها وأفانينها البهلوانية التعبيرية.

المهم أن المأزق موجـــود. فلنعـــاين إذاً بعـــض مظـــاهره وظواهره وتعبيراته بدل الإطالة في هذا التقديم.

في معاينة المأزق

ربما من طرائف ما سوف يحكى عن كتابة هـــذه الأيـــام أن كُتَّاب العربية وشعراءها ماعادوا يفتقدون الموضوعات الجديـــدة التي يكتبون فيها وحسب ــ برغم كثرتها تحت أنوفهم! ــ بـــل إنهم قد افتقدوا (اللغة الصحيحة) أو إنهم ضيعوها وفقدوها.

ويعني هذا الافتقاد أو الفقدان غياب القدرة على إنشاء ماهو قابل للتلقي تلقياً يحرض الرغبة بالمزيد منه، ويحرض المزيـــد من الإيجابية الوجدانية والعقلية والروحية في مواجهة ترديـــات الواقع التي هي جوهر المأزق الاجتماعي الحيوي العام.

إن المتابع المتبصر قليلاً في العمق الكامن خلف عموم مـــا ينشر من كتابات: إبداعية، ونقدية... وحتى فكرية، لا بد لـــه إلا أن يلاحظ كيف تهدر (اللغة): إما باللغو وإمـــا بالحذلقـــة وإمـــا بالتطويل الذي قد ينشئ فيه أحدهم صفحات طوالاً ليقول لقارئـــه فكرة صغيرة يمكن إيجازها بأسطر.

ومن أمثلة ما يمكن عدَّه لغواً في الكتابات الفكريـــة كتـــاب (القرآن والكتاب) الذي أصدره د.محمد شـــحرور فـــي مطلـــع التسعينيات حيث كان الكتاب المذكور ــ في هيكليته العامة ــ محاولة لمركسة القرآن انتهت إلـــى إعـــادة إنتـــاج (الغيبيـــات) بجدارة!!... ومن أمثلة الحذلقة في الكتابة النقدية ما قدمته خالدة سعيد ومحمد بنيس وغيرهما. وسنعود إلى (نموذج) من الحذلقـــة الفكرية في القسم الثاني من هذه المقالة. أما مثال التطويل فأقرب مايمكن للمرء أن يجده فيه هو مقالات د.جـــابر عصـــفور فـــي

جريدة "الحياة" وغيرها من المجلات والصحف التي يكتب فيها بغزارة واضحة.

ويمكننا أن نعد أمثلة كثيرة أخرى على اللغو والحذلقة والتطويل لكتّاب وباحثين لا يقلون شهرة عمّن ذكرناهم. والمهم أن ما ذكرناه يبدو مؤشراً على مأزق تهدر فيه اللغة، أو إن المأزق نفسه يفرض هذا الإهدار. ولكلّ مثال ذكرناه خلفياته ومترابطاته الخاصة المشيرة بدورها إلى جوانب محددة من تمظهرات المأزق.

وعموماً تبدو الموضوعات النقدية أو الفكرية التي تطرح في السوق الآن ــ مع الاحتفاظ بمكان للاستثناءات بالطبع ــ إما نقلاً ممسوخاً عن فكر ونقد (الآخر/ الغرب)، وإما ترجيعاً نوستالجياً لأفكار تراثية طافية أو منتقاة، وإما تكراراً لما صار بائتاً أو فائتاً من الأفكار التي شاعت خلال القرن العشرين مع مترابطاتها الأيديولوجية التي أصبحت تكاد لا تعني أحداً من المتلقين. إنها دائماً وبصورة إجمالية ــ موضوعات تتعالى على متطلبات واقع عربي مأزوم بمشكلات قرن تراكمت من دون حلّ حتى تحولت إلى معضلة وجود، وجاءت العولمة أخيراً فطرحت قضية بقاء أصحاب هذا الواقع أنفسهم على بساط البحث. فلجأ الفكر الدَّائخ بكل ذلك إلى هذا التعالي على تلك المتطلبات، أو لنقل ــ إن شئنا التخفيف ــ إلى مغايرتها برغم الادعاء دائماً بالإحالة إليها!.

وسواء شئنا أم أبينا فإن الحقيقة الجذرية في الوجود العربي الراهن هي حقيقة (الوجود باللغة). و(خارج اللغة) لا يساهم العرب بالإنتاج الحضاري المعاصر، بل هم يستهلكون منتجات

التكنولوجيا الرثة ونثار المعرفة المفوتة للغرب بشراهة فريدة!... وخلال ذلك يتم استهلاكهم، حتى لقد صارت هويتهم ذاتها موضع تشكيك وموضوع هدر محتمل مقبل. ولا أدل على ذلك مما سجله كل من الصهيونيين العتيدين: (الحمامة!!) بيريز في كتابه (الشرق الأوسط الجديد)، والذئب الصريح نتنياهو في كتابه (مكان تحت الشمس).

ومعضلة (الوجود باللغة) وحدها معضلة، في إطار المأزق الحيوي المدوخ المذكور. فاللغة لا تستطيع أن تكون (لغة) إلا عبر أبنية نصية تحيل صيغتها التعبيرية إلى دلالات قابلة للتلقي... وبالتالي، لابد من أن تكون ثمة موضوعات ساخنة، معالجة بكفاءة، محمولة في تلك الأبنية النصية، ومن دون ذلك تصير اللغة لغواً أو هذراً، أو إنها تظل مجرد (كلمات، مفردات)، لم تقفز خارج المعجم بل هي مقيمة فيه: تحمل طاقاتها الكامنة وتنتظر!!...

ولكن الموضوعات الساخنة التي تتولد في الاستهلاك تظل محدودة وسطحية، لأنَّها تخرج من رحم الوجود السلبي، وتصبح- بما هي قضايا مباشرة في إلحاحها على الوجدان الإبداعي والنظر التأملي ــ ممجوجة من قبل المتلقي نظراً لطول الاشتغال قبلاً في معالجتها من دون جدوى. ولتراكم المشكلات العالقة بها أصلاً كما سبق أن ذكرنا، من دون أن يتحقق أي أفق لاحتمال حلول حقيقية ومع الاختلالات الفادحة في آفاق الرؤى الإيديولوجية التي عرفناها في القرن العشرين، حيث تم أخيراً انتصار (الليبرالية الامبريالية) بكل فظاظاتها التاريخية تجاه الأمم/ موضوع النهب والابتزاز والتدمير، تبدو تلك الموضوعات للمتلقي العادي أو النمطي وكأنما هي موضوعات

زائفة. وفي الموضوعات الزائفة تهدر اللغة بالطبع، وقد تكون من أمثلة الهدر في هذا المقام تلك النصوص الروائية المسطحة التي لا تزال تلتفت بحنين إلى ريف لم يعد موجوداً، في مواجهة مدينة تم ترييفها إلى درجة التآكل التمديني فيها منذ عقود. وقس على ذلك من أشكال الهروب التعبيري من مواجهة ما تجب مواجهته.. الآن!!

هذه التخطيطة الإجمالية للمأزق الحيوي وتبادلاته مع مأزق هدر اللغة هي مجرد تخطيطة تعاين ما يهمها أو تقاربه مقاربة بسيطة، من دون أن تكون قادرة على احتوائه كلياً وإبرازه تفصيلياً... ومع ذلك فإننا نخمن أن هذا يكفي لما نحن بصدده.

مفكرون وأدوار، وإكمالات بخصوص اللغة

لعب ويلعب بعض المفكرين والأدباء المشاهير أدواراً بخصوص ما انتهينا إلى توصيفه لا يمكن للمرء معها إلا أن يشك في المرجعية الفعلية لها، مهما بلغ به افتراض حسن النية.

فمثلاً، ما معنى أن يحاضر الدكتور محمد عابد الجابري في بيروت في بدايات العام ١٩٩٢ ــ في دار الندوة، وبدعوة من مركز دراسات الوحدة العربية ــ فيؤكد في محاضرته تلك على أن (الدولة القطرية العربية قد أصبحت كياناً نفسياً واجتماعياً وثقافياً وسياسياً واقتصادياً مستقلاً) وعلى العرب الاعتراف بهذه الحقيقة والتعامل معها كأمرٍ واقع؟!.. وإذا غادرنا الجوانب غير اللغوية في هذه (الأطروحة) المفجعة فإلى أية لغات محكية بائسة سوف ينتهي أمر اعتصامنا الراهن (بوجودنا في اللغة)؟!

وما معنى أن يتوج الشاعر والباحث أدونيس مسيرته الشعرية بآخر محطاتها (الكتاب، أمس، المكان، الآن) حيث يتم

فيه إعدام (المكان العربي، والزمان العربي)، ويتحول فيه (الكائن الشعري/ القيمة الإبداعية المكرسة في الوجدان العربي (المتنبي) إلى نوع من (الهباء المرتحل) في فضاء تاريخي عربي وهمي كله، ولا يزيد عن كونه سلسلة متوالية من عمليات القتل وطوفانات الدم المرعبة؟!

ثم ما معنى تسويق شهرة الكاتب الفرنكوفوني أمين معلوف ــ أمين سر المنظمة الفرنكوفونية الآن ــ حيث رواياته جميعها تقريباً –تحيل دلالاتها النهائية إلى حتمية أن الغرب هو مرجعية الشرق، وأن للعرب وجوداً قليلاً في تاريخ هذا الشرق أو هو فائض عليه؟!

ومن جهة أخرى، ما معنى أن يقوم ماركسي معروف مثل د.صادق جلال العظم في (الاستشراق والاستشراق معكوساً) بترجمة فقرة من أواخر كتاب إدوار سعيد (الاستشراق) ترجمة مغلوطة ثم يحوله بموجب ذلك إلى (ناصح!!) للامبريالية بشأن الطريقة الأمثل لنهبنا!... وذلك بعد كل الجهد الهائل الذي قدمه إدوار سعيد في تشريح الاستشراق وعمليات (الشرقنة والغربنة) اللتين صممتا وعممتا لخدمة نهبنا التدميري من قبل الغرب الرأسمالي برمته؟!

هذه نماذج من أدوار فكرية ساهمت ــ وتساهم ــ في صنع الرؤيات العربية لحركة العالم ولموقع العرب فيه. والأمثلة المشابهة كثيرة ولكن تساؤلنا هنا ينصب على أثر صناعة هذا (الزيف الرؤيوي) في قضية اللغة وهدرها بما هي متشكلة في أبنية نصية إبداعية تخاطب وجدانات المتلقين أصلاً، ويفترض أنها مترابطة مع مقتضيات الوجود الاجتماعي ومعطياته، ومع

التحديات الملحة التي يواجهها.

ولقد أشرنا قبلاً إلى أن الموضوعات الحقيقية المهمة التي تستطيع اللغة أن تحملها راهنياً لابد لها من أن تتبع من مستوى مقبول من المساهمة في الإنتاج الحضاري: تقنياً ومعرفياً... ولعل (الزيف الرؤيوي) يترابط ترابطاً صميمياً مع آليات الابتذال الاستهلاكي... ذلك أن الفعل الحضاري المنتج يخلق (مناخاً) فكرياً ومعرفياً حقيقياً راسخاً، لأنه يقوم على يقينيات التجربة والتطبيق المبدعين... أما الابتذال الاستهلاكي فإنه ــ بحكم التبعية المتزايدة لمركز الفعل ــ يخلق هذا الزيف الرؤيوي المتولدمن السيكولوجية التهميشية، حيث أقصى ما يذهب إليه الوعي المهمّش هو تقليد الآخر بما يكفي من العمى عن الرؤية الصحيحة للذات. وهنا يقع الاكتفاء بالتأمل الواهم، والتلقي المنفصل لشذرات من منتوجه الإبداعي، منتزعة أو مقتطعة من سياقاتها التاريخية الإجمالية ضمن تجاهل لمستجرات الهيمنة المفروضة بمختلف أشكال القوة.

وكل هذا بالطبع يدخل في عمليات إنتاج الإبداع بما هو لغة.. مع اعترافنا بما للأدب عموماً من استقلالية نسبية داخل السياق الإجمالي لعمليات الواقع الاجتماعي الموضوعي.

حداثتنا الأدبية صيغها ـ ترابطاتها الأيديولوجية ـ مصائرها

فرضت التبعية إذاً زيفاً رؤيوياً متواتراً حول طبيعة (الذات) وحقيقة العلاقة بينها وبين (الآخر) الابتزازي والنهاب، وتم الاكتفاء ــ عموماً ــ بالتلقي الواهم لشذرات من إبداعه بتعام أو تجاهل للسياقات التاريخية العامة التي تم فيها ذلك الإبداع ولوظيفته أيضاً. وترك ذلك كله آثاراً على (لغتنا) بمعنى كونها

منجزات نصية إبداعية.

ونظراً لغياب فعلنا في الإنتاج الحضاري الكلي المعاصر، ولموقعنا الاستهلاكي الهامشي فإن انزياح لغتنا عن مستويات وأنماط أداء قديم إلى مستويات جديدة كان انزياحاً قسرياً ومحدوداً، مثلما كان محكوماً بروح منافسة قاصرة، ورغبة باللحاق (بهذا الآخر) بتقليده في ما حصلناه من (معرفة) بإبداعه.

وربما من هنا جاء فشل مشروعات (النهضة ــ نهضتنا) في هذا القرن. ومن هنا أيضاً جاء التوجه الحداثي لجماعة (مجلة شعر) قائماً على استبدال (ثورة الواقع) بثورة الكلمة، في أشد صيغ الوهم إشكالية وتبعية وتبديداً لطاقات الروح والعقل و اللغة معاً. إن إزاحة لغة لم تكن قادرة على الانزياح إلا قليلاً جداً قد قاد إلى انفلاش تعبيري له الصيغة الآتية:

١ ــ العودة إلى البدائية السحرية للغة (مفهوم الكلمة الخالقة) حيث يضيع الواقع الموضوعي كلياً.

٢ ــ صناعة (المستقبل؟!!)، بما أسسته تلك العودة الإلغائية.

وهنا يمكن للمتأمل جيداً في ذلك أن يتبين حجم القفزة الواسعة الواهمة فوق التاريخ من جهة، وفوق الواقع المعيش من جهة أخرى.

ونظراً لهذا الانخلاع المزدوج تشعر (الذات الشاعرة) بالغربة والضياع والتصدع والتشتت وتغرقها أوهامها، حيث لا تجد إلا التقليد التابع (للآخر) مهرباً مما ابتكرته من خدع (لذاتها) بسبب سوء تقديرها للواقع الموضوعي وتوجهاته وحركته وموقعها فيه.

وبالطبع كان على هذا (التيار اللغوي) أن يبتكر نقداً متلائماً

مع اختياراته واختباراته الواهمة. ولكن هذا لا يهمنا هنا.

وبالمقابل، يجب أن يرى التيار المرتبط بأيديولوجيات أخرى كالقومية العربية والماركسية، حيث كان الخطاب الأدبي والفكري يتحول تلقائياً إلى (خطابية سياسية) تحول اللغة إلى بيانات، وتعتبر ذلك تطويراً لها وتطوراً فيها، وقد أثبتت حركة التاريخ ومعطياته اللاحقة المستجدة مدى الوهم في ذلك، ومدى وهم أن البيانات لا تعبر عن أي واقع: لا منجز ولا قيد الإنجاز. وقد بات على (الثقافي)، أن يكتشف مدى محاصرته (بالسياسي) الذي ــ عبر هزائمه التحديثية والأيديولوجية والعسكرية أيضاً ــ رأى أنه مرغم على التواطؤ، بهذه الدرجة أو تلك مع (الفقهية الانحطاطية)، وحتى مع النوستالجية التزمتية ضد حليفه (الثقافي) السابق ذاته.. هذا الذي كان يتوهم أيضاً أنه (بالكلمة) يخلق وينجز واقعاً معصرنا مادام بها يحرض و(يُثور) ويثوّر!... ثم صار لزاماً عليه أن يكتشف عمق الفراغ الذي كان خطابه الإبداعي والفكري يعوم فوقه!!

ومن هنا نكتشف حيدان الشعر (الثوري سابقاً) نحو الإشراقية، أو نحو الرومانسية الندابة، أو نحو خطابية معارضة ولو بخفوت.

فإذا قرنّا كل الذي سبق ذكره إلى ما استجد بقوة، وسرعة غرائبية في وتيرة التغير والتقلب في أوضاع ومنجزات (الآخر/ الغرب الامبريالي المهيمن)، أدركنا ــ ولو بصورة مهتزة ــ حجم المأزق الذي تعانيه (لغة الكتابة) اليوم حتى وهي تحاول إجراء المثاقفة مع ما يقدمه ذلك الآخر عن تصوراته للعالم..

وبالطبع، لنا أن نتخيل فداحة انهيارات اللغة بالنسبة إلى جيل

يبدأ الكتابة الآن، حيث هي لم تعد مقنعة بترسيماتها المتوارثة، مثلما هي غير قادرة على الاستجابة لتعبيرات (ذوات) طموحة، لكنها عاجزة أمام آفاق عصر مقبل لا تبدو جديدة برمتها وحسب بل أيضاً مثقلة بسديم التغيرات المستمرة المفاجئة خالقة بذلك مزيداً من المشكلات الجديدة لهذه (الذوات) إضافة إلى المشكلات الموروثة من هذا القرن والتي تحولت بالتراكم إلى ما يشبه المعضلات.

هدر اللغة: طرائق الكبار

ربما صار على (الكبار) أن يعترفوا بوصول كثير من تجاربهم في (الكتابة) إلى بدايات الختام على الأقل، فغالبية أعمال الكثيرين منهم أخذت تصبح تكرارات لمعطيات نصية سابقة. ومع التكرار، وبالضرورة، يترافق التسطيح وهشاشة البناء العام وبعثرة البنيات الداخلية.. فكأنها تهدر اللغة في استنساخات نصية ــ خصوصاً في الشعر ــ لا تحيل بالنتيجة إلا إلى انتفاخ الذات وادعاءاتها، مع كامل ما يترتب على ذلك بخصوصها.

ومع ملاحظة أن ذلك كله ليس جديداً تماماً كظاهرة، في الشعر على الأقل، إذ أنه بتقدم التجربة يصبح للشاعر قاموسه، وأساليب أدائه المحددة، وحتى بعض الرواسم التعبيرية الخاصة به (كليشيهات)، إلا أن ما نعنيه هنا بخصوص التكرار هو أكثر عمقاً واختلافاً عن ذلك. إنه مؤشر الافتقار المتزايد للصلة الفاعلة بين الذات والعالم: افتقاراً تجريبياً واقعياً أو تأملياً أنطولوجياً. ولأننا هنا لا نستطيع إيراد النصوص وإجراء المقارنات فإننا سنكتفي بالإشارة إلى عدد من الأسماء الكبيرة

المتداولة، بالأساليب الخاصة لكل منها مع طلب ملاحظة التكرار وملحقاته في أعمالها الأخيرة خلال السنوات القليلة الماضية على الأقل.

إن القصائد الإشراقية للبياتي مثلاً لقيت بدئياً كثيراً من الحفاوة ربما بسبب طزاجتها آنذاك، والتي كانت لها بعض الجدة المدهشة في سياق خروجها على الخطاب الشعري الإيديولوجي. وربما كانت تلك الحفاوة دافعاً للتكرار لاحقاً حيث يتم تضييق المدارات التعبيرية للغة، وتصير الذات مرآة لذاتها وهي تحاول ــ دون كبير جدوى ــ تقمص أحوال معروفة في الإشراقية القديمة التي زالت.

وتنطبق ملاحظة التكرار على صوفية أدونيس "المسريلة"، والتي جنحت إلى أن تجرجر حولها محاولة عقلنة مصطنعة بتلفيق ضاعت معه الشعرية في النتيجة ضياعاً تاماً، كما في (الكتاب ــ أمس، المكان، الآن).

والأمر ذاته يلحظ في كتابات أنسي الحاج حيث الأنا "تتمسيح" في إطار تعبيري جنسي يهتم بتفخيم الذات في تكرارية تنتهي إلى نثرية باردة مملة.

وتدور غنائية محمود درويش منذ العام ١٩٨٢ حول أدواتها القديمة بتنوع في اللعب التعبيري يظهر الكثير من قصائده كأنما هي جديدة، ولكن التمحيص النقدي يبين بجلاء حجم التكرار المغطى بالمهارات الاسلوبية، حتى إنّ أعداداً من تلك القصائد لتبدو وكأنما هي مجموعة (رقع) منتقاة من قصائد قديمة ومخيطة بمهارة، بعضها إلى بعض. وليست اللفظوية الشكلانية النحتية التي يحتفي بها الأسلوب التعبيري لدى فائز خضور، أو

النزوع التموزي في أسلوب محمد عمران الذي يكثر من استخدام مفردات الطبيعة الريفية، بأقل خضوعاً للتكرار المنمط المشار إليه قبلاً.

وينطبق ذلك على سعدي يوسف في أسلوبه التعبيري الخاص الذي قام أساساً على إنشاء بنيات نصية جميلة من التقاط المفردات المهملة واقعياً في الشعر، مفردات الأشياء الأليفة.. وتفصيلات الحياة اليومية الصغيرة.

وهذه مجرد عينات من الملاحظات العامة بخصوص التكرار لدى هؤلاء الشعراء، ويمكن تتبع ذلك لدى سواهم جميعاً، وفي سائر الأحوال تبدو اللغة مسوقة إلى الهدر بسبب ذلك التكرار.. حتى لكأنما اللغة تواجه الشاعر بصلابة محمولها الموروث فلا تقبل معه إلا بالقليل من التغيير التعبيري!!

وبالطبع، يمكن لمعارضي حداثتنا الشعرية أن يتهموا هذه الحداثة بأنها ملفقة ومصطنعة وزائفة بدرجة كبيرة، غير أننا نقدر أن الحكم الأخير في ذلك متروك للتاريخ المقبل الذي ليس ببعيد.

وإذا كان هذا هو حال اللغة مع (شعر الحداثة)فما هو حالها مع النثر؟!.

للإجابة باختصار سنختار اثنين من الروائيين المعروفين في سوريا وهما (حنا مينة) و(حيدر حيدر)، وقد اخترناهما لما بينهما من افتراق بيّن في طرائق التعامل مع اللغة. ونحن سلفاً نشير إلى أن طريقة النظر في لغة الرواية هي طريقة مختلفة جذرياً عنها في لغة الشعر.

إن حنا مينة الذي يعيد الآن نشر (مذكراته!) ربما للمرة

العاشرة أو أكثر ــ وهذا تكرار سيء لما ورد في (بقايا صور، والمستنقع...) ــ يكتب، ربما منذ روايته (الربيع والخريف)، بغزارة ملحوظة، كأنما هو يريد إنجاز كمٍ روائي كبير ولو على حساب النوعية، وربما لهذا تبدو جملته السردية مسطحة باهتة، فتتهشّمُ البنيات الصغرى في نصوصه، ويتخلخل البنيان العام من حيث مقدراته الدلالية وتماسكه الفني، ويظهر هدر اللغة في تقصيرها التعبيري عن رفع الحدث إلى مستويات أعلى من التركيب الدلالي. وخلال ذلك، أو به، تظهر تكرارات حدثية مستهلكة خصوصاً في ما يخص (الجنسية) ومسائل البحر وتداعيات أحوال البيئة. أو إن هذه التكرارات الحدثية هي التي تصنع هدر اللغة ذاك، وهو ما يعيدنا إلى المسألة الأولى: مسألة افتقاد الموضوعات الجديدة أو تغييبها ... لا فرق.

أما (حيدر حيدر) فقد عرفت لغته الروائية ــ والقصصية قبلها في بعض المجموعات ــ بالشعرية العالية خصوصاً في روايته المشهورة (وليمة لأعشاب البحر)...

والوليمة التي انبنت أحداثها على ثلاثة خطوط رئيسية جمعتها سمة مشتركة هي (الثبات) وعدم التطور إلا قليلاً في الشخصيات والوقائع التفصيلية، غطت هذا النقص: أحياناً بالخطاب السياسي الفائض عن حاجة النص ــ كما في فصل ظهور اللوياثان العظيم على سبيل المثال لا الحصر ــ والذي استهدف استجرار التعاطف مع الرواية أساساً،كما غطت النقص المذكور إجمالاً باللغة الشاعرية وجمالياتها البلاغية التي تستثير الذائقة العربية التقليدية الكامنة وتطربها بقوة.

وقد لا يرى الهدر اللغوي جيداً هنا، لكن رواية (مرايا النار)

التي أعقبت الوليمة بعد طول انتظار أبرزت ذلك الهـدر جليـاً على الرغم من الروعة البلاغية اللغوية التي صيغت بها، والتي يمكن القول إنها مظهر ذلك الهدر وحقيقته.

فالأحداث في (مرايا النار) ليست أكثر من ظلال متسـاقطة من الوليمة، أي أن التكرار الحدثي أساس. وهو ما استدعى إقامة بنيان لغوي شاعري، ينقذ الحدث ويستدر إطراء الذائقة التقليدية، إياها!، فظهر هدر اللغة جلياً في ذلك البنيان المتعـالي تعبيريـاً على الحدث المبسط أو البسيط، إذ معيار لغة الرواية هو تكافؤ مستوى الأداء التعبيري مع الحدث، لا التعالي عليه شـعرياً ولا التقصير عنه بالنثرية الوصفية الفقيرة.

هدر اللغة: أسلوب المثاقفة بالحذلقة.

كنا نريد أن نشير بمثال شعري وآخر قصصـي أو روائـي إلى موضوع هدر اللغة لدى الكتاب الجدد، لكن المقام في هـذه المقالة لا يتسع، على أننا سنقوم بذلك في مقالة لاحقة.

وقد فضلنا أن نلمح في ختام هذه المقالة إلـى هـدر اللغـة بالحذلقة في عملية المثاقفة.

وما سنشير إليه هنا ليس، في الواقع، مثاقفـة قائمـة علـى المقارنة وإظهار الجوانب المستورة عنا لدى الآخر، مع إبـراز لأهمية المهم منها ولغلط المغلوط فيها، وتبيان لكيفيات استفادتنا من ذلك كله.. بل هو متابعة لجوانب ربما تهمنـا عمومـاً فـي جانب محدد من جوانب الفكر الجديد في بلـد واحـد، أو لـدى مجموعة من المفكرين المتقاربين فكرياً في عدد قليل من بلدان أوروبا.

ولأن العرض التفصيلي غير ممكن هنـا أيضـاً فسـنكتفي

مرغمين بالتسمية فقط، وهي هنا تخص العدد (٣٧ ــ المجلد العاشر ــ أيار/ حزيران ١٩٩٩)، من مجلة (كتابات معاصرة).

إن الحذلقة في عرض الموضوعات بدءاً بافتتاحية العدد وانتهاءً بملف (الصورائية: الشرق، الطغيان، العصيان)، تبدو جلية بصورة مزعجة، حتى ليتساءل المرء: لمن توجه هذه الخطابات النصية التي تهدر محمولاتها المفهومية في هذه الحذلقة اللغوية، حيث كل جملة تقريباً يحتاج قارئها إلى مترجم متخصص لها: من العربية.. إلى العربية؟! أم أنه ليس من حق القارئ النمطي ــ متوسط الثقافة ــ أن يفهم هذه المعاظلات على الرغم من أنه من المفترض أن تكون المجلة وموضوعاتها موجهة إليه أساساً؟!

فهل علنيا بعد هذا أن نهتف مستغيثين: رفقاً بعقولنا المسكينة يا عباد الله؟!!.

وهل لنا أن نتساءل في الختام: كتابتنا العربية... إلى أين؟!

❑❑